2000 0413 - 0017 - L

بالعكس تماماً

كي لا أفقد أشياء أخرى *

اذكر الكابوس الذي راودني لفترة سنة. كابوس يومي، مشهد قذيفة تخترق وجهي ما ان ارفعه من وراء سرير جدتي..

اذكر جارتنا التي كانت تخبّئ رأسها تحت طاولة المطبخ وتنصرف الى ابتلاع كم هائل من الحبوب المهدئة، يوميا..

اذكر صورة رسمتها وانا في الخامسة من العمر لمشهد وفاة ابنة خالي التي فصلت شظية اسرائيلية رأسها عن بقية جسدها، وهي في السابعة عشرة من العمر.. مشهد كنت اراه يوميا..

اذكر دموع امي التي حين لم تكن تبكي البلد كانت تبكي نفسها، تبكي ما عاشته وما لم تعشه بعد، تبكينا وتحضننا من دون ان تفسد تربيتنا التي هي كل ما بقي لها لتمارسه من اختصاصها الجامعي: علم النفس..

اذكر وجهها عندما نهرها عنصر من «حزب الله» بعدما طلبت منه، من الشرفة مباشرة، ان يخفض صوت نواح عاشوراء في البروفيه بعد يومين».. اذكر انني اكتشفت حينها ان امي «حرمة لازم تنضب».. كرهته كي لا تكون امي ضعيفة.. كرهته لأحبها

اذكر صوري الفوتوغرافية امام قرميد بيتنا العتيق الذي اصابته قذيفة اسرائيلية، اذكر الحزن البادي على وجهي وانا ابكي قرميدا احببته فرحل..

كنت اخاف البوم بون لأنه كان ممنوعا علينا ان نتناوله بعدما ترميه الطائرات فهو ربما مسموم.. بون بون مسموم.. حينها، كان البوم بون مخيفا ايضا..

اذكر الحد الفاصل بين اللهو والحقيقة: اذكر مسدس شقيقتي اللعبة الذي شهرته مرة، من البلكون ذاته، في وجه «الخندق المحارب» قبل ان تبادرها رصاصات تقتل.. رصاصات صوتها يقتل وتأثيرها يقتل وضحك شقيقتي يقتل، لكننا لم نمت.. حزنا فحسب.

اذكر اصوات الراجمات الاخيرة التي سمعناها، راجمات عون وجعجع وسوريا.. كنت اسمعها من بطني، اشعر بها من بطني، تماما كما يصدح صوت المغني من بطنه.. كان صوتا تمنيت حينها لو اموت فلا اسمعه، صوت ابشع من الفعل في حرب اخرستني اصواتها..

في الحرب، كانت خالتي تصوم ولا تفطر، شقيقتي تدرس ولا تنجح، خالي يتقدم في السن ولا ينتج، كانت ابنة خالي تموت ولا تحارب، كان ابي يتصل ولا يسمع، وكنت انا اسأل ولا افهم، اخاف ولا ابكي.. كنت اموت يوما بعد يوم، كنت اعرف اني اموت فأصبحت من اصحاب النكات الدائمة، كائنا مستديرا، يريد ان يُضحك كي يضحك..

كنت اخاف ان أنام وحدي في السرير، اخاف ان تخرج امي ولا تعود، كنت ارى فيها دائما واحدا من مسببات ارتفاع عدد الضحايا، وأرى فيها ايضا مدعاة دائمة للحداد.. بكيت وفاة أمي وهي حية.. بكيت فقداني لها وهي الى جانبي، وبكيت كل من احب لأني لم اكن اثق تماما بأني سأتمكن من حبهم بعد ساعة.

اذكر حبي لجميع المقاتلين وكرهي لهم، اذكر ان الحب حينها كان يشكل ثنائيا ملازما للكره.. خوفا من! اذكر ان الحب حينها كان اكثر ما يخيفني واكثر ما افتقد..

وانتهت الحرب..

وعدنا الى المدرسة..

وولدنا من جديد في صباح متأخر..

ونسيت تماما كل شيء.. نسيت ولم ارد ان اتذكر.. نسيت امي واختي وابنة خالي وخالتي.. حتى ابي نسيته.. وقلت: انا الاقوى، وسمعت انني المستقبل، وفهمت ان السلام الحالي يحضر لحرب اخرى..

جملة كثر ترددها واصبحت كليشيهاً يقال ببساطة..

كما لو ان قائله لم يعش الحرب ولم يمت خلالها.. انا مت خلالها.. الحرب ان عادت سأهاجر، وان تحولت الى كلمة في فم «زعيم» او مفكر سأهاجر، وان انتهت سأهاجر..

الحرب كانت طويلة جدا ومرت بسرعة جدا.. كانت اطول من كل ما تبقى من عمري.. وبقي عمري صدى سيئا لها..

فنحن «جيل الحرب» وقتلانها.. ولكننا ايضا جيل الحرب ووجعها غير المفهوم، وجعها الذي لم يرحل قط وربما لن يرحل ابدا وبالتأكيد لم يخفت ابدا.

أنا لم انس شيئا، على عكس ما توقعت.. أنا اتناسى.

انا اذكر كل شيء.. للاسف.

فأرجوكم ان تتمهلوا قليلا قبل ان تنسوا.. كي لا افقد اشياء اخرى.. كي لا أموت، من جديد، وحيدة كوسط المدينة.

سحر مندور

*مساهمة قدمت في نقابة الصحافة بدعوة من حملة «من حقنا ان نعرف»